الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في الوقت الحاضر

رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

—٣—

اما الجمود وهو ترك الدين الذي هو عنده بمنزلة الروح في هيكل الاجتماع الاسلامي أو الانسلاخ عن الماضي ، والانجراف في سيل الغرب ، فيرى انهُ خطر مهدد لكيان الهيئة الاجتماعية الاسلامية واكبر دليل على العجز وفتور العزيمة ، اذ به يزدري المرء ماضيهُ ،ويحتقر متاعه، ويصغر نفسه . فتملأ أرجاء قلبه بعظمة الغير ، ويحتل جوانب نفسه أعمال الاجنبي . فلا يرى الخير الاَّ في محاكاته ، ولا النجاح الاَّ في تقليده فيموت استعداده للخلق ، وتفنى كفاءتهُ للابداع . لذلك ينشدهم:

« انني ارى عند المسلم التقليد والظن
فروحي ترتعش في جسمي في كل وقت
خشية ان يحرمه (الله) يوماً
ويلقي حرقة (حبه) في قلب النير »

وقال ايضاً : « وان كان عند الفرنجي اساليب كثيرة
ولكني لم استفد منهُ الاَّ العبرة
يا من اصبحت اسيراً في تقليده ! كن حرًّا !
امسك ذيل القرآن وكن حرًّا ! »

وقال ايضاً : « مزق قميص التقليد
لكي تعلم به التوحيد »

وقال ايضاً : « ان صاحب القلب الحي يخلق الاعصار والدهور

ولكن روحه تصبح من التقليد محرومة من الحضور[1] »

وقال ايضاً : « انهُ يثقل على السيد الحر
ان يعيش في عالم الآخرين »

وقال واصفاً نتيجة التعليم الغربي :

« وان كنا مسرورين بتعليم الشبان ولكن
تخرج من شفتينا الضاحكتين سروراً ، الهفةُ كذلك
لاننا كنا نفهم ان تعليمهم سيأتي بالرخاء
ولم نك نعرف انهُ يأتي معهُ الالحاد

وقال ايضاً مصوراً حالة الشاب في العصر الحاضر :

« انهُ قد أصبح من حب الظهور عبداً للافرنج
فيأخذ منهم الرقص والغناء
هو يبيع نقد حياته باللهو
وقد اصبح العلم عليه صعباً فيهتم باللهو
وغدت فطرته تقبل ذلك
ان البحث عن السهل في هذا الدور القديم
دليل على ان الحياة قد ذهبت عن الجسم »

***

وعلى ذكر اللهو ورأي الشاعر فيه أذكر انهُ لما نزل الدكتور مصر من سنوات جاءهُ شاب مصري من المشهورين بالعلم والادب فسألهُ وأنا جالس عنده رأيهُ في مصر فقال

— انا لم امض هنا الا بضعة ايام ولكن ما وصلت اليه بملاحظاتي هو ان مصر تحتاج الى قيادة اخلاقية قوية اشد الاحتياج . فكنت بالامس اتنزه في جهة الجيزة اذ رأيت هناك مدينة الملاهي فاستغربت جداً . فبالله عليك قل لي يا سيدي ! ما هي الواجبات التي قمتم بها حتى وجدتم متسعاً من الوقت لتأسيس مدينة الملاهي وضياع حياتكم فيها . ثم انا أرى انكم تحبون تقليد أوربا اكثر من ان تخلقوا انتم عالمكم لانفسكم بأنفسكم

— نحن نقلد أوربا لان نهضتها لم تقم الا تقليداً لنهضة الاسلام . فالثورة الفرنسية في أوربا في الحقيقة كانت صدى الحركة الاسلامية

(١) اي من حضور القلب الى الله

— ما دمتم تعتقدون ذلك فلم لا تقلدون الاسلام عوضاً عن تقليد أوربة ؟

— وما رأيك في مصطفى كمال ؟

— ان مصطفى كمال لم يأت بشيء جديد بل كل ما عمل باسم التجديد انه قلد أوربا ولا غير. وعندي الحركة الفاشستية خيرٌ من حركة مصطفى كمال ، لانها تخلق من الايطاليين عالماً جديداً وبدون اي تقليد كما خلق الاسلام من العرب

لم يكن انتقاد الدكتور مبنيًّا على سوء النية بل على ما وصل اليه فكره وبصيرته بعد درس عميق للحضارات القديمة والحاضرة وعلى ما يتمنى للبلاد الاسلامية من الخير والمجد . فهو رجل مفكر يرى بفكره الثاقب ضرورة تجرد النهضات في ابان قيامها عن الفنون والملاهي الضارة لها . وهو عندي رأي سديد . وقد وضحه هو منذ عشرين سنة في مجلة العهد الجديد ونحن نلخصه هنا قال :

« ان الغاية القصوى لجميع الاعمال الانسانية هي الحياة . فما يريده الانسان من أعماله وجدّه، وما يبتغيه من غنائه وكدّه إن هو الاّ ان تكون حياته ذات خصب ومجد وقوة . لذلك يجب ان يكون جميع الفنون الانسانية قاصدة هذه الغاية العظمى ومصوّبة الى هذا الهدف الجليل ، وان يُقدّر كل شيء في هذا العالم على حسب كفاءته لتحقيق هذا الغرض ولبلوغ هذه الغاية — الحياة. وعليه فالفن الذي يقدر ان يوقظ قوتنا الارادية الراقدة وينفخ فينا روح العزيمة والجلد لمجابهة محن الحياة وآلامها بالبطولة والفحولة ويقودنا على هذا النمط نحو مجد الحياة وقوتها ، أرفع وأعلى وأجدر بالاهتمام والعناية . وما سواه جميع تلك الاشياء التي تنسينا وتحملنا على غمض عيوننا عن الحقائق المحيطة بنا التي على سيادتها توقف الحياة هي في الحقيقة بلاغ الزوال ورسول الموت . وعلى هذا يجب أن لا يكون الفن سكراً كحبة الافيون تخدّر الاعصاب فتوهن العزيمة وتفتر الهمة فتقتل الاماني وتجعل الانسان ينسى واجباته نحو نفسه وغيره ويقع في هاوية الخمول والضعة

وأما القول ان « الفن لأجل الفن » فهو من ايجاد التدهور والانحطاط قد اخترع لخدمتنا ولابعادنا عن الحياة والقوة » انتهى

لذلك يرى الدكتور اقبال ان المسألة التي عامل بها الاسلام الفنون والملاهي هي في المسألة عين الرشد ونفس الهداية لنوع البشر قاطبة في كل مكان وزمان

***

سادساً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة إلى غرس الانانية [1] وتربيتها وتبل الكمال .

(١) مرادنا « بالانانية » هنا الانانية المجردة عن صفاتها الحسنة والسيئة وليست كما هي معروفة عند العامة بصفتها السيئة ونحن قد اعتمدنا في ترجمة هذه الكلمة على رأي الدكتور اقبال نفسه لان الدكتور يعرف العربية ولان صاحب القول أدرى بما يقول

وهو موضوع فلسفته الخاصة ، بسط مبادئها في جميع دواوينه وعلى الاخص في اثنين منها اي « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » . ففي الاول قد وضح طريق تربية الانانية وتكوينها ، وفي الثاني طريق نيل الفرد الكمال وذلك بدخوله في نظام الاجتماع الاسلامي وهو عنده المثل الاعلى في جميع النظم الاجتماعية في العالم . فالاول يشمل المبادي والاصول لتربية الانانية ، والثاني يحتوي على الاركان والاسس للنظام الاجتماعي الاسلامي التي بالخضوع لها ينال الفرد الكمال . لذلك سمى الاول « أسرار خودي » اي أسرار الانانية والثاني «رموز بيخودي» اي رموز انكار الانانية لان الخضوع في الحقيقة انكار الانانية . ونحن نقدم اليك أولاً صورة موجزة لفلسفته [1] ثم نزف اليك ترجمة بعض الابيات المختارة التي تمس الموضوع من دواوينه المختلفة

ان الحقيقة عند اقبال عبارة عن عمل مستمر للتكوّن والتغيّر وليس منها حالة الوجود الساكنة او الوجود المقيد والمعين . وما يريد به هيجل من تسميه ، ويداتا [2] من برها [3] والصوفية من الله انهُ روح سارية في الكون ليس الاّ صورة من تصوير الذهن او جولة من جولات الفكر . وبازاء هذا التعميم لهيجل وبرها لويداتا وتصور الله للصوفية يرى اقبال ان المراكز المعينة للتجربة هي الحقائق الاساسية للكائنات . وتلك المراكز تتجلى في الانسان في شكل الانانية المتلية شخصيتهُ على صفحة الوجود . فالحياة عند اقبال شيء منفرد خلاف ما يصورها هيجل او ويداتا او الصوفية بأنها الشاملة السارية في الكون . وعلى هذا فالله عنده فرد واحد أعلى وأسمى ليس كمثله شيء تتنع بصفاته الافراد الاخرى . ثم الحياة عنده عبارة عن حركة مستمرة في التقدم تجذب الكائنات بالغلبة على مشاكلها الى نفسها (أي الى مركزها الانانية) كما تجذب الصفات الالهية الى نفسها (اي الى مركزها الانانية) . والانانية هذه تتقوى بالعشق الذي هو أسمى صورة للحركة المستديمة في الطلب والسعي في نيل المطلوب غاية الحياة . وأما المقياس لمعرفة الخير والشر في الطلب فهو ان جميع الطلبات التي تقوي الانانية خير ، والتي تضعف الانانية شرٌّ . فالعشق خيرٌ لانهُ يقوّي الانانية ، والاستجداء شرٌّ لانهُ يضعف الانانية . فكلما تتقدم الانانية على هذا المنوال تتقرب الى الانانية العظمى (اي الله) وينال صاحبها الكمال . ولا يريد اقبال بذلك التقرب او الكمال ان يكون نهاية الانسان الفناء في تلك الانانية العظمى او الانضمام اليها كما يقوله الصوفية او يبيّنهُ لنا ويداتا ، بل الانسان الكامل

(١) وقد كتبنا قبلا مقالا مفصلاً في فلسفته نشر في الرسالة في عدد ١١٨ من سنتها الثالثة فمن أراد التفصيل فليرجع اليه (٢) اسم للكتاب المقدس عند ديانة البراهمة وهو أساس فلسفتهم (٣) اسم علم عندهم لله تعالى

عنده هو الذي يجذب تلك الانانية العظمى الى نفسه اي يتصف بصفاتها ويتخلق بأخلاقها . وهذا الكمال لا يمكن ان يناله الفرد الا بالدخول في مثل النظم الاجتماعية وأعلاها وهو عند الدكتور نظام الاجتماع الاسلامي كما قلنا

نقتطف من تمهيد ديوانه « أسرار خودي » بعض الابيات التي ترجمنا في ما يلي قال :

أنا أنتظر قائمي الفجري
سُعداء عُبّاد ناري
أنا النغمة ولكن غير محتاجة الى المضراب
أنا صوت شاعر الند
ان عصري لا يعرف الاسرار
ويوسفي ليس لهذه السوق
أنا قانط من اصحابي القدماء
ان طُوري يحترق لأجل موسى المقبل
إن بحر أصحابي ساكن مثل الندى
ولكن نداي يحمل طوفان البحر
ان نغمتي من عالم آخر
إن هذا الجرس لقافلة أخرى
كم شاعر ولد بعد موته
فهو غمض عينيه وفتح عيوننا
ورحل الينا من العدم مرة أخرى
وازدهر مثل الورد من تراب قبره
أنا العاشق والصراخ إيماني
وضجيج الحشر معشوقي .

وقال في ان أساس نظام العالم الانانية وان تسلسل حياة الافراد يتوقف على توطيد الانانية واليك ترجمة بعض الابيات المختارة :

إن مظهر الكائنات اثر من آثار الانانية
فكل ما تراه سرٌّ من أسرار الانانية
ان الانانية متى ايقظت نفسها
كشفت عالم الفكر (الخ)

إن مئات من الآلام مخفية في ذاتها
فان الاعتراف « بأنا » يحيط التمام عن « غير أنا »

وقال أيضاً : على أن حياة العالم قائمة بقوة الانانية
فالحياة فيه على حسب تلك القوة

وقال أيضاً : ان النطفة حين فهمت الانانية
حوّلت وجودها الشفاف الى اللؤلؤ
ان الجبل متى انعدمت أنانيته أصبح الصحراء
وأنّ من شدة جَرَيَان النهر

وقال ايضاً : ان الموج الى أنه موج في البحر
حقيق بان يركب أكتاف البحر

وقال ايضاً : ان الشعب متى نال قوة النموّ من أنانيته
تَلَمَّسَتْ همته صدرَ الخليفة

وقال في ان حياة الانانية قائمة من خلق الآمال وايجاد المقاصد ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

ان بقاء الحياة من الأمل
ان قافلتها تسير بجرس الأمل

وقال ايضاً : أحيِّ الاملَ في قلبك
لئلاَّ تصبح حفنة ترابك قبراً

وقال ايضاً : ان التمني هيجان الانانية
انهُ موجٌ مضطربٌ من بحر الانانية

وقال ايضاً : ايها الغريب عن سر الحياة ! قم !
قم ! سكران من خمر الأمل
فان كنت ذا أمل فأنت مشرق كالصبح
وكنار محرقة لغير الأمل .

وقال في ان الانانية تنقوى من العشق ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

أن نقطة النور التي تسمى الانانية
في ترابنا شرار الحياة
هي تصبح من العشق اكثر ثباتاً
وحياةً واحتراقاً ولمعاناً

وقال ايضاً : تعلم العشق واطلب محبوباً
وانظر نوح وقلب ايوب

وقال في ان الانانية تضعف من الاستعداد ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

يا من جمعت الضرائب من الأسود
وأصبحت تطلب الطعم من الاحتياج
الى متى تكون سائل المنصب
وتركب العصا مثل الاولاد

وقال ايضاً : ان الفقر يزداد ذلةً من السؤال
ان السائل يزداد فقراً من السؤال
ان اجزاء الانانية تنفك بالسؤال
ويحرم به نحل طُوَر الانانية من التجلّي

وقال ايضاً : ان النمر يأخذ قُوتَهُ من مائدة الشمس
لذلك يحمل الندية في قلبهِ من احسانها

وقال ايضاً : ان تحت السماء ذلك الشاب الشريف
يمشي عالي الرأس مثل الصنوبر
الذي يحافظ على عزة نفسه أكثر عند ضيق اليد
وان كان حظه راقداً ولكنهُ اكثر يقظة

وقال في الحياة ما يلي ترجمته :

« ان الحياة شرح اشارات الانانية
ان « لا » و« الا » من مقامات الانانية [1]

وقال ايضاً : ان الحياة هي تزيين الانانية بالذات
وطلب الشهادة على وجودها من الغير

***

طاغور واقبال

هذه اهم المعالم لرسالة شعر اقبال . وفي الآخر يحب ان نقول كلمة في الفرق بين رسالتي الشعر للشاعرين الهندين العظيمين الدكتور السر محمد اقبال والدكتور السر رابندرانات طاغور

(١) « لا » و « الا » اشارة الى كلمة لا اله الا الله

الذين هما كفرسي رهان في العصر الحاضر تمتز بمفريقهم الهند وتتباهى لانهما ركضا امومتها ورضيا لبانها . ولا يساعدنا المجال ان نصيب عُذَيقه ولا الوقت ان نوافق جُذَيلَه هنا برسم جميع معالم الفرق بينهما للقارىء . فما نقدر عليه هو ان نحفهُ بصورة مصغرة لكل منهما فيتضح له الفرق فنقول :

ان اهم الفرق بين رسالتي شعرهما هو الذي بين السكون والحركة . فروح شعر طاغور كلها هدوء وسكون وهما من لوازم التفكير العميق فيما وراء الطبيعة الذي لا يزال الصفة المميزة والمطبع الرئيسي للديانة الوثنية الهندية وثقافتها من القدم . لذلك جولان فكر طاغور لا يتعدى هذا المدى . فهو يقدم لك مناظر أنيقة بنمط يكاد سنا ضوئها يخطف قلبك ومشاهد رائعة بأسلوب يكاد بهاء حسنها يذهل نفسك ، فيفيض به جناح فكرك ويطمس معالم تفكرك ، ويدفعك الى التزام الهدوء والسكينة والتفكير . وهذا الهدوء والسكينة اللذان يتناهما المرء كثيراً ويحنّ اليهما في معامع الحياة وجلبة الاعمال حيناً قد فقدهما الشرب منذ زمن بعيد . لذلك عندما سطع نور شعره فرح به الشرب وأسبغ عليه جائزة نوبل فأصبح سيداً هاماً في ذيوع شهرته في العالم مالم تبلغهُ شهرة اقبال بعد . وقد يكون السبب لذلك اختلاف طبعه ايضاً عن طبع طاغور . فانه يكره الظهور[1] وطاغور لا يكرههُ كما يدل عليه ترشيحه نفسه للجائزة . وعلى كل حال فشعر طاغور صورة بهية لمناظر الطبيعة وجمالها وهَدْهَدة مؤثرة للمتعبين من معارك الحياة ومشاكلها ، ووحي السكينة للفاقدين طمأنينتهم في منافسات الحضارة ومنازعاتها

واما روح شعر اقبال فكلها حركة وإقدام . وهما ايضاً من الصفات المميزة لدعوة الاسلام وثقافته . فشعره ثورة تأجيج لهدم السكون ، وركان نار يلتهب لحرق الجمود . هو يوقظك بشعره من الغفوة وينبهك على الهفوة ويسبح بك الى العلاء سبحاً ، ويتفخ فيك به روح العزيمة ويحذرك من فتور الصريمة ويسبح بك الى المجد سبحاً . لذلك رسالة شعر إقبال رسالة تحتاج اليها الحياة الانسانية اشد الاحتياج في حين قد وهت علائقها بإسراف الغرب في الاقدام على غير الهدى ، وتضعضعت دعائمها بإمعان الشرق في الاحجام على غير البصيرة ، خلافاً لرسالة شعر طاغور فانها علاج وقتي لها لا يتعدى اثره ظروفاً وأحوالاً خاصة كما لا تمسها ايضاً الحاجة الى تلك الرسالة في كل حين وآن . وعلى هذا فشعر اقبال روح الثقافة وصُوَر التقدم وجرس الرحيل الى رفعة لا تطاول وقوة لا تضام ، ونداء عام للتسم الى ذروة الشرف والتوقل في معارج المجد

(١) وقد صور الدكتور طبعه هذا في بيت ترجمته « انا لا أفضل دلال الملوك ولا جرح الاحداق . يامن انخدعت بالطبع انظر الى همة هذا الفقير »